الانتقالات المقطعية في بنية الفواصل القرآنية المغايرة وأثرها في المعنى

الكلمات المفتاحية: انتقال، مقطع، فاصلة

ا.م.د. محمد بشير حسن
جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الإنسانية
dr.moh7777@gmail.com

الملخص

يقوم هذا البحث على رصد مظاهر التحوّل المقطعي في فواصل قرآنية مغايرة لأخواتها في السورة نفسها، وكانت عينة البحث تفيد من مبنى الفاصلة بوصفه موجهًا لمظاهر التحوّل في الصفات والخصائص التي تتشكل في حدود تلك الفواصل.

ويتتبع البحث تفاعل الصوت المرتبط بالمعنى العام والخاص ، فتغير المقاطع في بنية الفاصلة وانتقالها لها أثر في موسيقى الفواصل التي تلقي بظلالها في وعي السامع ، فضلا عن إذكاء المعنى .

وحاول البحث استنادًا إلى هذا الرصد الشكلي الانتقال نحو المُنجز المضموني الدلالي المتوخى من مظاهر التحوّل المقطعي، والبحث في مهاده هو محاولة أولى تُهيّئ الطريق لدراسات أُخرى أكثر شمولية وجِدة.

المقدمة

للبناء الصوتي المقطعي أهمية في جميع لغات العالم، إذ يعدُّ النسيج الذي تُنْسَجُ منه اللغة، ومن خلاله يتكون نظامها وتسير على وفقه الاستعمالات اللغوية كافة.

يفترض البحث أنَّ للبناء المقطعي أثرًا في المعنى يفيد من التحولات التي تُظهرها الفاصلة في السورة القرآنية، ولاسيما في المشاهد والأنساق ذات الإيحاءات التصويرية، ويحاول البحث رصد الطبيعية الفونيمية للصوت في حدود مظاهر الانسجام (Harmony)، والأنساق التي يحققها الأُسلوب القرآني.

إنَّ المعاني المتوخاة من النظم القرآني تستدعي تضافر عناصر صوتية مع الأبنية، وقد اختار الباحث التفاعل الصوتي المرتبط بإشباع الحركة أو تقصيرها أو

حذفها في البنية المقطعية للفاصلة القرآنية وأثره في المعنى في وعي المتلقي، وإنَّ الانتقال بين الفواصل القرآنية في السورة الواحدة إنما يكون بتغير في البنية المقطعية وما يحدثه من أثر موسيقي يلقي بظلاله في وجدان السامع فيؤثر فيه؛ فهناك أصوات وتغيرات مقطعية تحدث داخل الفاصلة تجعل المتلقي أكثر انتباهًا وإدراكا للمضمون، فضلا عن الأثر النفسي الذي تحدثه تلك النغمات في المتلقي، وقد رصد الباحث مواضع معينة اختارها لتمثل مظاهر تحولات البناء المقطعي في الفاصلة، ولا يدعي أنه أحصى كل التغيرات أو الانتقالات في بنية الفواصل القرآنية؛ بل يتوقع أنَّه أعطى تصوّرًا شموليًا في اختياراته القرآنية؛ لأنَّه يؤسس لرؤية يحسبها ناجعة تهيّئ لبحوث لاحقة أغنى منها وأكثر فاعلية.

وقد قدّمت للبحث بتوطئة وضّحت فيها تعريف المقطع وأنواع المقاطع التي تشكّل النظام المقطعي للعربية، وتحدّثت عن حدود الفاصلة القرآنية، ولم أتطرق إلى تفاصيل أخرى؛ لأنَّ الفاصلة عقدت عليها دراسات كثيرة أغنت الباحث عن الحديث .

وقد اخترت ثلاثة مواضع للانتقالات المقطعية في الفواصل، منها(**الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة** محمد)، والموضع الآخر(**الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة الفجر**)، وأخيرًا (**الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة مريم**) ولا ادعي لبحثي الكمال إنّما هو محاولة أولى تنطلق مما أنتجه علم اللغة الحديث، وما توصّل إليه من نتائج بوساطة الآلة، تجعل نفس الباحث توّاقة إلى تطبيق أصول هذه العلوم على القرآن الكريم للكشف عن أسراره الباهرة ومكنوناته البديعة التي لا تنقطع؛ والله أسأل الإخلاص في العمل فتلك منّة من الله عليَّ فله الفضل أولا وآخرًا لما هداني.

توطئة:

من المسلمات العلميّة القول إنَّ كل لغة من اللغات تسير على وفق نظام مقطعي مُعين يُراعيه متكلمو اللغة، وإنْ لم يحسّوا به، وإنَّ هذا النظام يسهم في الطبيعة الاشتقاقية التي فطرت عليه اللغة العربية.

والمقطع هو: ((وحدةٌ صوتيةٌ تبدأ بصامت يتبعه صائت وتنتهي قبل أوّل صامت يرد متبوعًا بصائت، أو حيث تنتهي السلسلة المنطوقة قبل مجيء القيد))[١]، ويأتلف النظام المقطعي في العربية من ستة مقاطع، مقسّمة تقسيمًا كمّيًا، وهي[٢]:

١. المقطع القصير: ويتكوّن من صامت + صائت قصير، ومثالُهُ مقاطع كلمة

(ذَهَبَ) / ذ ـَ / هـ ـَ / ب ـَ /، إذ تحتوي على ثلاثة مقاطع قصيرة، ولا يكون المقطع القصير إلا مفتوحًا.

٢. المقطع الطويل المفتوح: ويتكوّن من صامت + صائت طويل، كما في مقاطع كلمة

(نُوْدِيْنَا) / ن ـُ / د ـِ / ن ـَ / وفيها ثلاثة مقاطع طويلة مفتوحة.

٣. المقطع الطويل المغلق: ويتكوّن من صامت + صائت قصير + صامت، مثل كلمة

(قُلْ) / ق ـُ ل/

٤. المقطع المديد: ويتكوّن من صامت + صائت طويل + صامت، مثل مقطعي كلمة

(ضَالُّون) / ض ـَ ل / ل ـُّ ن/.

٥. المقطع المـَزِيد: ويتكوّن من صامت + صائت قصير + صامتين، وهو من مقاطع الوقف، وهو من المقاطع النادرة في العربية[٣]، ومثالهُ عند الوقف على كلمة

(نَهْرٌ) في الوقف (نَهْرْ) / ن ـَ هـ/ ر ـُ ن/

/ ن ـَ هـ ر / عند الوقف

٦. المقطع المـُتمادّ: ويتكوّن من صامت + صائت طويل + صامتين، وهو من مقاطع الوقف وهو من المقاطع النادرة في العربية[٤]، مثل المقطع الأخير من لفظة (جانٌّ، يُشادُّ، مُتمادٌّ) عند الوقف

/ م ـُ / ت ـَ / م ـً د/ د ـُ ن/

وعند الوقف مادّ / م ـً دد/ .

وهذا يعني أنَّ المقطع المُتماد عبارة عن مقطع مديد، متبوع بصامت مشكّلا قاعدة من غير قمة، وهذا غير جائز في النظام المقطعي العربي؛ لأنَّ اللازم في كل مقطع أن تكون له قاعدة وقمّة، ولا يصح أن يكون ثمة مقطع فيه قاعدة من غير قمة لذا ألحق الصامت في آخر المقطع إلى المقطع الذي قبله مشكلا نوعًا جديدًا من المقاطع سُمي بـ(المقطع المُتمادّ).

أما **الفاصلة القرآنية** فحظيت بعناية كبيرة من الباحثين قديما وحديثا، وما يهمنا تحديدها، فقد قال عنها الزركشي(ت٧٩٤هـ) إنَّها ((كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السَّجْع))[٥].

وإنَّ الباحث ينطلق من مبدأ أنَّ الألفاظ بجرسها الصوتي تسهم في أداء المعنى وتؤثر في المتلقي، وإنَّ ((لهذه الموسيقية أثرها في النفس، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمرا مرعيا))[٦]، ولكنه يرجح القول الذي يقول: ((فلاشك أنَّ هذه المناسبة أمر مرعي لكن تغيير نظم الآي من أجلها، إنّما هو ضرب من الضرورات نجلّ القرآن عن مثله))[٧].

وسيحاول الباحث أن يتطرق لبعض الفواصل القرآنية المغايرة للفواصل الأخرى في السورة الواحدة وسيختار بعض العينات، ثم يحللها تحيلا صوتيا مستعينا بأقوال المفسرين والباحثين المحدثين.

١.الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة محمد

حدث انتقال مقطعي في بنية الفاصلة القرآنية في سورة محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم)، ولهذا الانتقال ما يسوّغه وله علاقة بالمعنى المراد، فسورة محمد من السور المدنية عدد آياتها ثمان وثلاثون آية، احتوت على مشاهد بدأت بذكر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، يقول سيّد قطب:((افتتاح يمثل هجومًا بلا مقدمة ولا تمهيد، وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله))[٨].

وقد ضمنت حديثًا عن المؤمنين الذين آمنوا بما أُنزل على محمد(صلّى الله عليه وآله وسلم)، ولكن يبدو أنَّ صفة التقريع والتنبيه للمنافقين والكفار هي السمة الغالبة على سياق السورة، وقد سُميت السورة باسم سورة القتال، ((فالقتال هو

موضوعها. والقتال العنصر البارز فيها. والقتال في صورها وظلالها. والقتال في جرسها وإيقاعها))[٩].

ولم يكن بناء الفاصلة المقطعي بمعزل عن المعنى، فقد كانت فواصل السورة تحمل إيقاعا يُحسُّ، ويشد النفوس لتتابع المشاهد التي جسدتها تلك الآيات الكريمة كما كان للنظام المقطعي أثر في حركية الفواصل، ففواصل السورة تنتهي دائمًا بمقطع طويل مغلق /صامت + صائت قصير + صامت/، وهذا النوع من المقاطع يناسب المعنى العام للسورة، غير أنَّ النظام المقطعي سيختلف في آيتين فقط، هما الآية العاشرة، والرابعة والعشرون.

بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ ﴾، فالفاصلة (أعمالهم) يمكن ملاحظتها مقطعيا: / ء ـَ ع / م ـً / ل ـَ / هـ ُـ م /

طويل مغلق طويل مفتوح قصير طويل مغلق

وهكذا هو حال الفواصل الأخرى﴿ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ أَمۡثَالَهُمۡ ﴿٣﴾ أَعۡمَالَهُمۡ ﴿٤﴾ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ أَعۡمَالَهُمۡ ﴿٨﴾ ﴾

ولكنَّ الفاصلة ستختلف في الآية العاشرة فسيحدث فيها انتقال في بنائها المقطعي من الطويل المغلق إلى الطويل المفتوح مخالفة بذلك جميع الفواصل في السورة، والآية في قوله تعالى:﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾، فقد جاءت الفاصلة (أمثالها) مخالفة لفواصل السورة الكريمة، ويمكن ملاحظتها من خلال الكتابة الصوتية الآتية:

/ ء ـَ م / ث ـً / ل ـُ / هـ ـً /

طويل مغلق طويل مفتوح قصير طويل مفتوح

ولما كان الموضع يحيل على الوعيد لأهل مكة، وتذكيرهم بحال الأمم السابقة مثل قوم لوط وعاد وثمود، غايرت الفاصلة في (أمثالها) غيرها من الفواصل بتحول المقطع الأخير إلى طويل مفتوح/ هـ ـً /، وقد حقق نوعًا من الالتفات الجاذب للمتلقي، يقول سيد قطب في (أمثالها): ((وهي لفتة عنيفة مروعة، فيها ضجة وفرقعة وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم. وكل مالهم، فإذا هو انقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض

المتراكمة، وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته، والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته في انقضاضه وتحطمه))[١٠]

أما الآية الرابعة والعشرون فقد جاءت مغايرة لفواصل السورة أيضًا، وتكمن المغايرة في المقطع الأخير من الفاصلة أيضًا، قال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ منتهية بمقطع طويل مفتوح في (أقفالها) / ء ـَ ق / ف ـً / ل ـُ / ه ـَ /

طويل مغلق طويل مفتوح قصير طويل مفتوح

مخالفة بذلك للفواصل السابقة ـ إلا فاصلة الآية العاشرة ـ واللاحقة لها، والتغاير في الفاصلة يحقق تنبيهًا وزجرًا على تلك القلوب التي لم تتدبر القرآن، يقول الزمخشري(٥٤٨هـ): ((أم بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأنَّ قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر))[١١]، ويقول الفخر الرازي(٦٠٦هـ): ((على قلوب أقفالها وهي لعدمِ عَوْدِ فائدةٍ إليهم، كأنها ليست لهم))[١٢]، ويقول أبو حيان الأندلسي(٧٤٥هـ): إنَّها ((أقفال الكفر التي استغلقت فلا تُفتح))[١٣].

نلاحظ أنَّ المعنى المقصود هو بليغ في تصوير حال المنافقين الذين استغلقت قلوبهم، فلا ينفذ لها نور الأيمان، فهي كالميتة لذا وصفهم بالإقفال وهو ابلغ وأمضى من الختم، وقد جاءت الفاصلة مختلفة في نظامها المقطعي تنبه المتلقي على عِظم حال هؤلاء المنافقين، متحولة من المقطع الطويل المغلق إلى المقطع الطويل المفتوح ليمد المقطع الأخير محققًا المغايرة مع الفواصل الأخرى ليشعر القارئ في هذا الموضع أنَّ الحالة التي وصل إليها المنافقون مأساوية لا رجوع عنها وليحس بها ويتجنبها ويتعظ بها.

وفي نظرة شمولية للآيتين المذكورتين آنفًا نجد أنَّ الفاصلتين (أمثالها) و(أقفالها) كان حقهما أن يكونا كالفواصل الأخرى التي تنتهي بفونيم الميم الساكن ضمن مقطع طويل مغلق، إلا أنّهما خالفتا فواصل السورة في الانسجام الصوتي تنبيها على المعنى المراد وهو أعلم بمراده سُبحانه.

يقول الدكتور حسام النعيمي: ((وهكذا يتبين لنا أنَّ الفاصلة القُرآنية وإن كانت في ظاهرها فاصلة صوتية إلا أنَّ لها ارتباطها الوثيق بدلالة الآية، وإنَّ المعنى مقدم على الانسجام الصوتي العام للفواصل، فقد يضحي بالانسجام الصوتي العام

من أجل انسجام صوتي خاص يتلاءم مع الصورة الفنية التي يُراد لألفاظ الآية أن توحي بها في نسق معين فضلا عن إدراك المعنى المراد))[١٤].

٢.الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة الفجر

ظهرت بعض الفواصل المغايرة في سورة الفجر، ولاسيما الآيات الثلاث التي انتقلت من المقطع الطويل المفتوح إلى المقطع القصير، وقد يكون مديدًا أو طويلا مغلقا في حالة الوقف، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ ﴾ وقوله ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ ، نجد أنَّ الفواصل قد قُصِرَتْ في، (يسرِ) (أكرمنِ) و(أهانِن)، فحدث فيها انتقال في البناء المقطعي، فأصلها : يسري أكرمني أهانني، تنتهي بمقطع طويل مفتوح، انشطر الصائت الطويل/ ـِ / واختُزل إلى صائت قصير / ـِ / ويمكن أن نلاحظ ذلك بالنظر إلى الكتابة الصوتية الآتية:

يسري (الأصل) / ي ـَ س / ر ـِ /
طويل مغلق طويل مفتوح

(يسرِ) (في الوصل) / ي ـَ س / ر ـِ/
طويل مغلق قصير

(يَسْرْ) في الوقف / ي ـَ س ر /
مزيد

أكرمني (في الأصل) / ء ـَ ك/ ر ـَ / م ـَ / ن ـِ /
طويل مغلق قصير قصير طويل مفتوح

أكرمنِ (في الوصل) / ء ـَ ك/ ر ـَ / م ـَ / ن ـِ /
طويل مغلق قصير قصير قصير

أكرمَنْ (في الوقف) / ء ـَ ك/ ر ـَ / م ـَ ن/
طويل مغلق قصير طويل مغلق

أهانني (في الأصل) / ء ـَ / ه ـً / ن ـَ / ن ـِ /
قصير طويل مفتوح قصير طويل مفتوح

أهانِن (في الوصل) / ء ـَ / ه ـً / ن ـَ / ن ـِ/
قصير طويل مفتوح قصير قصير

أهانَنْ (في الوقف) / ء ـَ / هـ ـً / ن ـَ ن/

قصير طويل مفتوح طويل مغلق

نلاحظ أنَّ الانتقال المقطعي متمثل في حالتي الوصل والوقف، فبالوصل يتحول إلى مقطع قصير، وفي الوقف يتحول إلى طويل مغلق، أو مزيد كما في (يسر).

وحق هذه الفواصل أن تكون منتهية بصوت مدّ، أي بمقطع طويل مفتوح، ولكنها قصرت فانشطر هذا الصائت الطويل واختُزل إلى صائت قصير هكذا/ ـٍ / ←/ ـِ / ليتحقق الانسجام الصوتي مع بقية الفواصل، يقول محمد عزة دروزة(ت١٩٨٤م): ((تحتوي السورة تذكيرا بعذاب الله الذي حلَّ بالطغاة المتمردين من الأمم السابقة كعاد وثمود وفرعون وإنذارا لأمثالهم... وأسلوب السورة عام العرض والتوجه مما يدلل على تبكيرها بالنزول، وفصولها وآياتها منسجمة))[١٥].

وقد تحدّث النحويون عن تقصير المقاطع في (أكرمنِ، أهانَنِ)، واستحسنوا حذف الياء التي تسبق بنون، فقد رجح الفراء حذفها قائلا: ((والأحب إليَّ في هذا اتباع المصحف؛ لأنَّ اتباعه سنة ومخالفته بدعة... وحذفها جيد بالغ بخاصة مع النونات)) [١٦]

قال أبو سعيد السيرافي: ((أما ياء المتكلم في الفعل فالحذف فيها حسن؛ لأنَّها لا تكون إلا وقبلها نون، فالنون تدل عليها ولا لبس فيها، ولذلك كثُر في القرآن)) [١٧]، وإن زيادة النون في (أكرمن، أهانن) من أجل أن تسلم فتحة الميم، التي تشكل قمة المقطع القصير[١٨].

وأثبت الاستقراء أنَّ صوت النون جاء في معظم فواصل السورة، منها في﴿ عَشۡرٍ ۝٢ حِجۡرٍ ۝٥ بِعَادٍ ۝٦ عَذَابٍ ۝١٣ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ أَهَنَنِ ۝١٦ لَّمَّا ۝١٩ جَمّٗا ۝٢٠ دَكّٗا ۝٢١ صَفّٗا ۝٢٢ ﴾؛ بل هناك قراءة قرآنية شاذة نُسبت لأبي الدينار الأعرابي[١٩] تجعل التنوين في فواصل أخرى غير التي أشرتُ إليها من مثل(والفجرٍ، والوترٍ، يسرٍ).

ويبدو أنَّ هذا الانتقال الذي تكون فيه النون ضمن بناء مقطعي لفواصل السورة له علاقة بسياق السورة، الذي وجد فيه وعيد وتهديد وعذاب وضرب أمثلة لأمم سابقة، فاختير صوت النون لما له من خصائص صوتية فقد إنماز من غيره بوضوحه السمعي وإحداثه إيقاعًا موسيقيًا ، يقول الزركشي: ((قد كثُر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون وحكمته وجود التمكن من التطريب))[٢٠].

٣.الانتقال المقطعي في الفواصل المغايرة في سورة مريم

وُجد الانتقال المقطعي في بنية الفاصلة القرآنية في سبع آيات من سورة مريم من الآية الرابعة والثلاثين إلى الآية الأربعين.

وهذا الانتقال له علاقة بالمعنى المراد في السورة، فالسورة من السور المكية الجميلة التي تحمل قصصًا عن جمع من الأنبياء، وقد كان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) يدعو بها أهل الكتاب[٢١]، وقد كان للسورة وقع في نفوس المتلقين بما فيهم النصارى لما فيها من إيقاع صوتي مُبهر، ولاسيما ما جاء في بنية فواصلها، وتَذْكُر المصادر أنَّ النجاشي ملك الحبشة ومن معه من قسيسين ورهبان تأثروا فيها فأجهشوا بالبكاء حين تلقيها[٢٢].

وتحمل السورة في طياتها حديثًا عن الأنبياء وما جرى لهم من مثل نبي الله زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإدريس(عليهم السلام)، وضمنت معجزة ولادة نبي الله يحيى وعيسى والسيدة مريم[٢٣] التي((فصلت قصتها بعد قصة يحيى وزكريا المشابهة لها، ويتلوهما ذكر رسالة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس مبدوءا كل منهما بقوله:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ والمراد بالكتاب القرآن))[٢٤].

ولم يكن البناء المقطعي وتحولاته في فواصل الآيات بمعزل عن المعنى، وإنَّك ((تحس أنَّ للسورة إيقاعًا موسيقيًا خاصًا فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: رضيّا. سريّا. حفيّا. نجيّا... فأما المواضع التي تقتضي الشدَّة والعنف، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالا في الغالب. مدّا. ضدّا. إدّا. هدّا، أو زايًا: عزّا. أزّا.))[٢٥]، ويتنوع الإيقاع والفاصلة بحسب المعنى والسياق[٢٦]، وقد جاء النظام المقطعي في فواصل الآيات التي ذكرت اليهود واختلافهم في نبي الله عيسى مغايرًا للنظام المقطعي في الفواصل السابقة واللاحقة، فالآيات من الرابعة والثلاثين إلى الآية الأربعين فواصلها مختلفة عما قبلها وبعدها، وهي مغايرة في موضوعاتها أيضا لما قبلها وبعدها، فهي تتحدث عن المنكرين والمختلفين في أمر نبي الله عيسى؛ لذا فقد جاءت فاصلتها مختلفة ومتحولة.

ومن المعلوم أنَّ السورة بدأت بقوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾، وقد جاءت الفواصل الأخرى على هذا النمط ﴿ شَقِيًّا ۝٤ وَلِيًّا ۝٥ رَضِيًّا ۝٦ سَمِيًّا ۝٧ عِتِيًّا ۝٨ ﴾

ففاصلة السورة تنتظم في أغلبها بياء مُشَدّدة بعدها صائت طويل وهو الألف، مُحققة بذلك نغمة موسيقية تشد المتلقي لتقبل ما جاء في السورة وما احتوته من قصص.

والبناء المقطعي في أغلب الفواصل ينتظم من/مقطع قصير+ مقطع طويل مغلق+ مقطع طويل مفتوح/

وهذا النوع من التدرج يسميه الأصواتيون بـ(صيغ الإيقاع الصاعد) وهي كثيرة الاستعمال في الصيغ، يقول هنري فليش: ((فالصيغ ذات الإيقاع الصاعد أعني التي من مقطع قصير ثم تستمر على مقطع طويل... هذه الصيغ تكاثرت كلماتها إلى أقصى حد))[٢٧]، ويمكن ملاحظة البناء المقطعي للفواصل بالنظر إلى الكتابة الصوتية الآتية:

شَقِيًّا / ش ـَ / ق ـِ ي / ي ـً /
قصير طويل مغلق طويل مفتوح

وَلِيًّا / و ـَ / ل ـِ ي / ي ـً /
قصير طويل مغلق طويل مفتوح

رَضِيًّا / ر ـَ / ض ـِ ي / ي ـً /
قصير طويل مغلق طويل مفتوح

سَمِيًّا / س ـَ / م ـِ ي / ي ـً /
قصير طويل مغلق طويل مفتوح

عِتِيًّا / ع ـِ / ت ـِ ي / ي ـً /
قصير طويل مغلق طويل مفتوح

نلاحظ أنَّ البنية المقطعية للفواصل متوافقة ومنسجمة فيها جميعًا، فهي منتظمة من / قصير، طويل مغلق، طويل مفتوح/ مع التنبه على أنَّ الوقف يؤدي إلى حذف قمة المقطع الأخير في جميع الفواصل، فأصبحت منتهية بصائت طويل وهو الألف مسبوقًا بياء، حتى أصبح هذا النمط الصوتي هو الطابع المميز لأغلب فواصل السورة.

ولكننا سنجد أنَّ هناك اختلافًا في فواصل السورة ولاسيما الآيات السبع المذكورة آنفا، الآية الرابعة والثلاثون إلى الحادية والأربعين؛ إذ تتغير الفاصلة تبعًا للانتقال المقطعي الذي حدث فيها مما يلقي بظلاله على المعنى، والآيات السبع هي:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

فواصل الآيات المذكورة آنفًا مختلفة عما قبلها وما بعدها في بنائها المقطعي، ويمكن معرفة ذلك بالنظر إلى الكتابة الصوتية الآتية:

يَمۡتَرُونَ / ي ـَ م / ت ـَ / ر ـُّ ن/
طويل مغلق قصير مديد

فَيَكُونُ / ف ـَ / ي ـَ / ك ـُّ ن/
طويل مغلق قصير مديد

مُّسۡتَقِيمٞ / م ـُ س / ت ـَ / ق ـٍ م/
طويل مغلق قصير مديد

عَظِيمٍ /ع ـَ / ظ ـٍ م/
قصير مديد

مُّبِينٖ / م ـُ / ب ـٍ ن/
قصير مديد

لَا يُؤۡمِنُونَ / ي ـُ ء / م ـِ / ن ـُّ ن/
طويل مغلق قصير مديد

يُرۡجَعُونَ /ي ـُ ر/ ج ـَ / ع ـُّ ن/
طويل مغلق قصير مديد

مع التنبه على أنَّ المديد في نهاية الفواصل في الوقف بينما في الوصل يتحولان إلى طويل مفتوح وقصير.

نجد أنَّ بنية النظام المقطعي في الآيات المذكورة آنفًا قد تغيرت عما قبلها وبعدها، فقد بدأت هذه الآيات بفاصلة مخالفة لما قبلها وبعدها في نظامها المقطعي، ففي (يَمْتَرون، مُسْتَقيم، يُؤْمنون، يُرْجعون)

بدأت بمقطع طويل مغلق ثم قصير، محققة بذلك إيقاعًا عكسيًا مخالفًا لفواصل السورة، فقد ورد عن هنري فليش أنَّ هذا النوع من الصيغ الصرفية فيه تناقض إيقاعي موسيقي يتحقق بصيغ قليلة الاستعمال في العربية إذا ما قيست بصيغ الفواصل السابقة واللاحقة لها، وقد أريد لها بهذا التحول التأثير في أفق المتلقي ونقله من معنى إلى معنى، مع انتباهه على تغير النغمة أنَّ الحديث عن المنكرين لنبي الله عيسى وولادته واختلافهم فيه؛ لذا فقد تغير النظام المقطعي فأصبحت تتكون في الأغلب من/ طويل مغلق، قصير، مديد/ وفي فاصلتين من /قصير، مديد/.

فالتغير في البناء المقطعي كان واضحًا ولاسيما المقطع الأخير /المديد/ بعد أن كانت الفواصل تنتهي بمقطع/ طويل مفتوح/، ولهذا الانتقال ما يسوغه فقد أثر في نفس المتلقي وشد انتباهه بالنغمة المتغيرة التي صاحبت ذكر المنكرين للحق، وعندما ينتهي الحديث عن هؤلاء المنكرين في الآيات السبع ترجع الفاصلة عما كانت عليه قبل الآية الرابعة والثلاثين ويرجع نظامها المقطعي كما كان منتهيا بمقطع /طويل مفتوح/ فيها حديث عن الأنبياء والمرسلين كنبي الله إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الفواصل التي تغيّر نظامها المقطعي قد انتهت بفونيمي النون والميم، خمس آيات بالنون (يمترون، فيكون، مبين، لا يؤمنون، يرجعون) وآيتان بالميم (مستقيم، عظيم).

والسرُّ في ذلك أنَّ صوتي الميم والنون الأنفيين هما من الأصوات التي تتميز بوضوحها السمعي (sonority) فهي تبلغ قمة إسماع عالية وتأتي بالمرتبة الثالثة

بعد أصوات المد الطويلة والقصيرة والأصوات التكرارية والجانبية بحسب تخطيط جسبرسن للوضوح السمعي للأصوات [٢٨]، ويأتي الوضوح السمعي لهذه الأصوات من طبيعة نطقها، فهي تبلغ مدة زمنية أطول من بقية الأصوات؛ لأنَّ الهواء القادم من الرئتين يأتي ليخرج من الفم فيجد طرف اللسان التصق بأصول الأسنان العليا مع اللثة فيقف الهواء ثم يجد له منفذًا آخر عن طريق الأنف فيخرج، فيحدث صوت النون، وكذلك مع الميم تسدُّ معه الشفتان فتغلقان غلقا محكما فيجد الهواء منفذًا آخر من الأنف فيخرج[٢٩]، وهذه العملية الفسيولوجية هي التي تمنح الصوت وضوحًا سمعيًا عاليًا يشترك فيه الصوت مع درجة الانفعال.

وإذا عقدنا موازنة بين صوتي النون والميم من جهة وأصوات المد (ا و ي) من جهة أخرى، فنجد أنَّ أصوات المد أكثر وضوحًا في السمع، وأن الألف هو اكثر وضوحا من الواو والياء، فصوت الألف بالمرتبة الأولى في إسماعه بحسب تخطيط جسبرسن، وقد جاءت فواصل سورة مريم كلها منتهية بالألف من بدايتها إلى نهايتها منتظمة في نسيج صوتي متدرج في مقاطعه، سوى الآيات السبع المذكورة آنفًا وهي تتحدث عن المنكرين والمختلفين لولادة نبي الله عيسى والسيدة مريم.

ويبدو من ذلك ــ والله اعلم ــ أنَّ الآيات التي تحدثت في ولادة نبي الله يحيى وعيسى وبقية الأنبياء ومكانتهم وفضلهم وطهرهم أعطاها نغمة عالية انتهت فواصلها ــ في الأغلب ــ بياء متلوة بصوت مد طويل وهو الألف، وعندما وصل الحديث عن موضوع مخالف في وسط السورة فذُكر المنكرون لهم أعطاها نغمة أقل في الدرجة والوضوح وبناء مقطعي ينتهي بصوتي النون والميم، وهو مختلف عن الذي جاء في مجمل السورة القرآنية، ليحقق بذلك الانتباه للمتلقي ويشده لتلقي نبأ المخالفين والمنكرين لأنبياء الله .

الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج من أبرزها:

١.تتكون فواصل الآيات من مقاطع صوتية تتشكل في نسيج متماسك يبعث بتلوينات صوتية مختلفة تحقق نوعًا من الانسجام الشكلي .

٢.وجد البحث أنَّ هناك علاقة جدلية بين المعنى والانسجام الصوتي المتحقق في مقام وروده، فهذا الانسجام من متطلبات التصوير وما الشكل إلا نتيجة من نتائج المضمون.

٣.تحققت المغايرة في الفواصل بوساطة المقاطع الصوتية، وهي عنصر تنبيه على المعاني المتغيرة، وقد أحسَّ بها السامع صوتيا، فكان الصوت دلالة على المعنى المراد.

٤. كشف البحث أنَّ لصوت النون ميزة في بنية المقاطع تلقي بظلالها على موسيقى الفواصل، فقد تكرر صوت النون والتنوين كثيرًا في الفواصل، وقد يأتي بعد صوت المد لما له من موسيقى وتطريب يخدمان بنية الفاصلة المرتبط بالمعنى.

٥.ترتبط أصوات المدّ بالفاصلة وبنيتها، وتتمثل بمظاهر أُسلوبية تقوم على الانتقالات والتحوّلات كالتقصير أو الإشباع أو الحذف

Abstract

The Syllabic Transitions in the Quranic Verse Last Word and its Effect in the Meaning

By:Asst. Prof. Mohammed Bashir Hassan (Ph.D)

Dept. of Arabic-College of Education University of Diyala

The study focuses on the aspects of the syllabic transformation depending on certain postulates supposed to be related to style. The sample of the study

The study aims at investigating the relationship of change in the structure and its transformation with the musicality perceived by the listener in addition to meaning enrichment.

On the basis of surface investigation, the study attempts to move to the deep meaning resulted from syllabic transformation aspects. It is regarded that this study paves the way for more modern and comprehensive studies in the field.

إحالات البحث

(١) أبحاث في أصوات العربية: ٨، وينظر: أسس علم اللغة:٩٦، والأصوات اللغوية د.إبراهيم أنيس:١٥٢.

(٢) ينظر: دروس في علم أصوات العربية(كانتينو):١٩٢، والعربية الفصحى(فليش):٤٤، وأبحاث في أصوات العربية: ٩ـ١٠.

(٣) ينظر: علم الأصوات برتيل مالمبرج:١٦٥ـ١٦٦.

(٤) ينظر: دراسة الصوت اللغوي:٣٠٢.

(٥) البرهان في علوم القرآن:٥٣/١.

(٦) من بلاغة القرآن:٧٢.

(٧) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة:٦.

(٨) في ظلال القرآن: مج٦/ ج٢٦: ٣٢٨٠

(٩) المصدر نفسه: مج٦/ ج٢٦: ٣٢٧٨.

(١٠) المصدر نفسه: مج٦/ ج٢٦: س٣٢٨٩.

(١١) الكشاف:٤٢٦/٤.

(١٢) التفسير الكبير (الفخر الرازي):٥٦/٢٨.

(١٣) البحر المحيط:٤٧٢/٩.

(١٤) أبحاث في أصوات العربية:١٤٨.

(١٥) التفسير الحديث:٥٣١/١.

(١٦) معاني القرآن:٣٨٩/١.

(١٧) شرح كتاب سيبويه:٥٨/٥.

(١٨) ينظر: المصدر نفسه:٥٨/٥.

(١٩) ينظر: شواذ القراءات:٥١٢، البحر المحيط:٤٦٩/١٠.

(٢٠) البرهان في علوم القرآن:٦٨/١.

(٢١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار):٢٦٢/٨.

(٢٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي):٧٣/١١.

(٢٣) ينظر: التفسير الحديث:١٤١/٣.

(٢٤) تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار):٢٦٢/٨.

(٢٥) في ظلال القرآن: مج٤/ج١٦: ٢٣٠٠.

([٢٦]) ينظر: المصدر نفسه: مج٤/ج١٦: ٢٣٠٠.

([٢٧]) العربية الفصحى:٨٩.

([٢٨]) ينظر : المدخل إلى علم اللغة(د. رمضان عبد التواب):١٠٠.

([٢٩]) ينظر: علم الأصوات (د. كمال بشر):٣٤٨.

المصادر والمراجع

القُرآن الكريم

i. أبحاث في أصوات العربية، د. حسام سعيد النعيمي، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ١٩٩٨م.

ii. أُسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة وتعليق: د. أحمد مختار عمر، ط٨، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

iii. الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، ط٤، مكتبة الأنجلو المصري، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧.

iv. البحر المحيط، أبو حيان (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت ــ لبنان١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

v. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ـ مصر. ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

vi. التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، د. سلمان حسن العاني، ترجمة: د. ياسر الملاح، ط١، النادي الأدبي الثقافي في جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

vii. التفسير الحديث ، محمد عزت دروزة ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ــ مصر، ١٣٨٣ هـ

viii. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني

(المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ــ مصر ، ١٩٩٠ م.

ix. الجامع لأحكام القُرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هُشام سمير البُخاري، عالم الكتب، الرياض ـ السعودية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

x. دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، ط٤، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

xi. دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة: صالح القرمادي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية في الجامعة التونسية، تونس، ١٩٦٦.

xii. شرح الشافية، ابن الحاجب، رضي الدّين الاستراباذي (٦٨٦هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

xiii. شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨ هـ)، تحقق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٨ م .

xiv. شواذ القراءات، محمد بن أبي نصر الكرماني(من علماء القرن السادس الهجري)، تحقيق:د.شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لبنان، د.ت.

xv. العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، هنري فليشس، تعريف وتحقيق: د. عبدالصبور شاهين، ط٢، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

xvi. علم الأصوات، برتيل مالمبرغ، ترجمة ودراسة: د. عبد الصبور شاهين، مطبعة التّقدّم، القاهرة ـ مصر، ١٩٨٥م.

xvii. علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة ـ مصر، ٢٠٠٠م.

xviii. الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ط٢، دار عمّار، عمّان ــ الأردن،١٤٢١هـ ـ٢٠٠٠م.

xix. في ظلال القرآن، سيّد قطب،ط٣٢، دار الشروق، القاهرة ـ مصر،١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

xx. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

xxi. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب،ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

xxii. معاني القرآن، أبو زكريا الفراء(ت٢٠٥هـ)، تحقيق: محمّد علي النجار وآخرون، دار السرور(د، ت)

xxiii. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ،١٤٢٠ هـ.

xxiv. من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، د. محمد الأمين الخضري، د.ط، القاهرة ١٩٩٤.

xxv. من بلاغة القرآن، أحمد عبدالله البيلي البدوي(ت١٣٨٤هـ)،دار نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠٥.